اثر جليل للقرن السادس عشر

رسالة البطريرك اغناطيوس نعمة الله السرياني

(١٥٧٩ م)

عرّبها عن الاصل السرياني ، وافتتحها بترجمة حياة البطريرك المذكور
الخوري يوحنّا عزّو ، كاتم اسرار البطريركية السريانية الانطاكية

١

توطئة

كثيراً ما سمعنا الخلف يشيد عن السلف بذكرى الرسالة السريانية التي بعث بها البطريرك اغناطيوس نعمة الله من عاصمة الكثلكة . ولم يتأتَّ حتى اليوم الوقوف على ما انطوت عليه تلك الرسالة المستبدعة . وبينما كنت أجيل الطرف في مخطوطات مكتبة بطريركيتنا السريانية ، الغنية بالمصاحف الخطّية المتقادمة العهد ، وقع بصري على كرّاسة سريانية العبارة قد تتالت عليها الاحقاب حتى تهرّأت واخذ منها الخراب ، فتصفّحتها ملياً لاحيط علماً بما تحتويه ، فاذا بها النسخة الوحيدة للرسالة السريانية الموما اليها ، ضالّتنا المنشودة ، وقد انفذها صاحبها من رومية سنة ١٥٧٩ . فهي اذًا اثر جليل يرتقي عهده الى القرن السادس عشر للمسيح.

فطمعاً في انماء اجلها ، وتخليداً لذكر صاحبها البارّ المبتلى على مدى الايام وممرّ الاعوام ، حبّبت اليّ نفسي ان ازفّها معرّبة الى قرّاء « المشرق » الكرام . فعنيت بترجمتها على علّاتها ، متوفّرًا جهدي على احكام نصّ عباراتها . ولكي يقف القارئ اللّبيب على وعورة المسلك الذي اجتزت به ، لما آلت اليه سطورها من التلف حتى عفا بعضها وتهرّأ غيرها فاستعصت قراءتها او كادت ، أتحفتُه برسم آخر صحيفة منها ، وهي احسنها . وفيها ايضاً بيّنة على انها للبطريرك المشار اليه اذ يذكر الكاتب ما تعريبه: «ما سطّره وارسله

الينا ليعرّفنا به البطريرك المظلوم نعمة الله » .

بيد ان ما يحقّ له الاسف ان الرسالة المشار اليها بتراء لا اثر لاولّتها ، بحيث لا يتسنّى البتّ في من وجّهت اليه . فقد قيل ان البطريرك صاحبها بعث بها الى المفريان داود شاه ابن شقيقه . وقيل بل انه وجّهها الى الطائفة السريانية جماء ، كما يتراءى للقارئ العزيز من سياق ترجمة حياته . على انّ ما نقرأه في تضاعيف الرسالة ذاتها لا يكشف الستار عن هذا اللبس بل يزيده اشكالاً . لاننا نراه حيناً يوجه مقاله بصيغة المفرد ، وآناً بصيغة الجمع . فيترجح القول انه بعث بها الى ابن اخيه المفريان السابق الذكر موجّهاً الكلام اليه والى الطائفة معاً ليتلوها عليهم كما كانت العادة على الاغلب في تلك الحقبة . والله اعلم .

ثمّ يلوح لنا ان هذه الرسالة ثلثة اقسام . فالاول منها ، واوّله مفقود على ما ذكرنا ، يتجلى من سياق كلامه انه مستقلّ عن الآخرين ، بل هو رسالة قائمة بذاتها اوفدها من اورشليم حيث كان قد اقام زمناً غير يسير ، على ما يبين من قرائن الرسالة ذاتها . مع اننا لم نعثر في ترجمة حياته على انه حجّ المدينة المقدسة او اقام فيها . ولولا العبارات المفصحة عمّا نزل به من البلوى وابداء امارات التوبة لاقتضى الحكم على انها اليه لا منه . ولا يعارض هذا الرأي ما يبدو في القسم الثاني من متابعة لكلام سابق وذلك أولاً : لان القسم الاول قد انتهى معناه وخُتم بلفظة « آمين » ، ثانياً : لوجود فسحة خالية من الكتابة بين القسمين الاول والثاني تقضي بأنّ هذا ايضاً قد بُتِر أوله وفقد ، وكأني بالكاتب قد ترك هذه الفسحة البيضاء بأمل العثور على المفقود ، ولكن بكلّ أسف لم تتحقق امنيّته على ما يظهر . والله اعلم . اما القسم الثاني وما يتبعه من اخبار البلدان والايالات التركية في القسم الثالث فهما منه ، ومصدرهما رومية العظمى حقيقةً .

ولكي يطاوع المرادُ المطالع الكريم ويتنبّه فوراً لما ترمي اليه هذه الرسالة من المغازي والمرامي ، رأيت أن افتتحها بترجمة حياة البطريرك المغبوط المزما اليه . فنقّبت عنها في الكتب المخطوطة والمطبوعة مستعيناً على الخصوص بما نشره المثلث الرحمات المطران ديونوسيوس افرام نقّاشة ، رئيس اساقفة حلب

آخر صفحة من الرسالة

السرياني ، في كتابه « عناية الرحمان في هداية السريان » وحضرة القيكونت فيليب دي طرازي المؤرخ السرياني في كتابه « السلاسل التاريخية » فجمعت كل ما تيسّر لي ونسّقته واهديته الى القراء الافاضل .

هذا واننا لنجد عذرًا للبطريرك الكاثوليكي الصميم في اتيانه على ذكر بعض الائمة المنوفيسيتيّين كسويروس وميخائيل الكبير وسواهما في تضاعيف رسالته اذا ما أنعمنا النظر في ما تتطلّبه الفطنة آنئذٍ حباً باستمالة بني جنسه الى حظيرة الكثلكة ، وخيفة من ان شديد تمسّكهم بآبائهم وقديم عوائدهم ينفّرهم منها حسبما صرّح هو نفسه .

البطريرك

اغناطيوس نعمة الله الاول († ١٥٩٠)

ولد نعمة الله بن يوحنا بن نور الدين اصفر[1] في ماردين . وكان سليل عترة نبيلة يرتقي عهدها الى القرن الرابع عشر . وتلقى العلوم في دير الزعفران . ثم قبل درجة الكهنوت ، وتسقّف باسم اثناسيوس نعمة الله بوضع يدي سالفه البطريرك اغناطيوس عبد الله الاول ابن اسطفان من قلعة الامرأة . وأقيم في سنة ١٥٥٥ مفريانًا . وبعد سنتين انتقل سالفه الى جوار ربّه ، بعد ان قضى في البطريركية ٣٧ عاماً ، فتبوّأ صاحب الترجمة الاريكة الانطاكية وكانت سنة ١٥٥٧

كان البطريرك الجديد من جملة العلم في عصره ، متضلّعاً من العلوم الرياضية ، وواسع الاطلاع في الطبّ ، وقد نال بسببه جاهاً عظيماً وحاز مكانة مثلى لدن الحكّام العثمانيّين . فاخذ يجوب متفقّدًا ابناء شعبه ، ورسم اسقفاً لمذيات ، قاعدة طور عابدين ، دعاهُ موسى . وفي سنة ١٥٦١ شخص الى كليبين ، احدى قرى ماردين ، ورسم فيها قسوساً وشمامسة .

وجرت له مداولات مع الحبر الاعظم خليقة بالذكر . منها انه اوفد سنة

---

١) روى السيد افرام تقاشة المثلّث الرحمات انه كان من آل شيلّه ، وهي لفظة مختزلة عن « شيء الله » .

١٥٦٠ الى عاصمة الكثلكة يوحنا ابراهيم قاشا اسقف الحديثة [1]. فلما حظي هذا بالمثول امام البابا بيوس الرابع احسن وفادته واكرمه ، وتحمّله رسالة جليلة الى البطريرك نعمة الله حافلة بعبارات اللطف والعطف يدعوه فيها الى بثّ فكرة الاتحاد مع الكنيسة الرومانية بين طائفته ، قال فيها :

« ان اخانا الحبيب يوحنا ابراهيم قاشا ، اسقف الحديثة ، زار اعتاب الرسولين (بطرس وبولس) ولبث هنا بضعة اشهر وقد ألفيناه لما مثل بين يدينا فاضلاً متديّناً ساعياً في التقى وخشية الله . ولما وصف لنا صلاح اخوّتك أصحبناه بكتاب منا اليك . . . لان وظيفتنا الرسولية تلجئنا الى معانقة كل من رؤساء الكنائس بحبّ اخوي وندعوهم الى مشاركتنا في الاعتناء بخلاص القطيع الذي اودعه الله ايانا . فنؤمل ان تكون رغبتكم في ذلك نظير رغبتنا . هذا ولا تجهل اخوّتك ان العناية بالنماج قد قلّدها المسيح بطرس وبه الاحبار الرومانيين . فيا حبّذا لو بقيت الطائفة اليعقوبية متحدة مع البيعة الرومانية دائماً كما كانت قد قامت بهذا الاتحاد في مجمع فلورنسة الذي التأم وعقد بمساعي سالفنا ارجانيوس الرابع واختامه سنة ١٤٤٩ ، اعني قبل ١١٨ سنة ، وحيث ان كوارث الزمان قد حالت دون ديمومة هذا الاتحاد وجب ان نحرّض اليوم اخوّتك لتبذل الوسع في اعادته من جديد . وانت تعلم ان الايمان واحد ، وعروس المسيح واحدة ، وهي البيعة الجامعة التي رأسها وأساسها هي البيعة الرومانية – اعطي في روميه في ٢٣ حزيران سنة ١٥٦٢م وهي الثالثة لحبريتنا . » [2]

فلما حظي البطريرك نعمة الله برسالة ابي المؤمنين ووقف على ما انطوت عليه راقته جدًا وبلغ من اقصى فؤاده ما اشتملت عليه من الخطاب الابوي العذب السديد ، فاقام من فوره نائباً عنه ابن اخيه المفريان داود شاه ، اسقف معدن سابقاً ، وعلق يطوف بنفسه متفقدًا رعاياه وباثًا بين ظهرانيهم فكرة الاتحاد مع الكنيسة الرومانية واخذ يرغب اساقفة بطريركيته ، والوجوه فيها ، قدر ما كانت تسمح له الفطنة آنئذٍ . وفي الوقت ذاته شدّد التوصية على نائبه داود شاه المارّ ذكره [3] ببذل الهمة ومواصلة السعي في تحقيق امنيته بتهيئة الشعب لاعتناق الاعتقاد بالايمان الكاثوليكي . وكان عدد الاساقفة اليعاقبة حينئذٍ كما روى القاصد لاورد هابيل الذي اوفده اليهم الكرسي الرسولي ، كما

١) بلدة في آشور على الدجلة .

٢) طالع « الشرق المسيحي » للوكيان ج ٢ عمود ١٤٠٥ عن تاريخ رابنالدوس ، عند سنة ١٥٦٢ ، عدد ٢١ .

٣) هو ابن شقيق البطريرك نعمة الله المقدسي قسطنطين .

سيأتي ، ٢١ اسقفاً عدا البطريرك ونائبه ، وقد ذكر اسماء ثمانية من العلماء بينهم .

بيد ان ابليس ، عدوّ الخير ، لم يرقه نجاح البطريرك الشهم بل طفق يعرقل مساعيه فاثار عليه اعوانه ، وزيّن لهم ان ينزلوا به محنة عظمى، هي أنه لما آب البطريرك الى آمد (ديار بكر) [1] ضمّه وبعض علماء المسلمين مجلس جرت في غضونه بينهم مباحثة ادّت بالعلماء الى اتهامه بالكفر او اعداده مسلماً . وتقدّم شهود من ديوان الحاكم شهدوا عليه مؤكدين اسلامه ، فانكر عليهم ذلك ، فاسلموه للجلد ، فالحبس . ثمّ اتأم مجلس العلماء وحاكموه ، فأثبتت عليه الوشاية الزورية وقضي عليه بالقتل كمرتدّ عن الاسلامية . فعرض عليه البعض الاسلام كي ينجو من القتل فابى . غير ان والي آمد الذي كان يودّه جدًّا لتضلّعه من العلوم وخصوصاً لحذقه في الطبّ أشفق عليه ، ولكي ينقذه من هذه التهلكة نزع عمامته عن رأسه ووضعها على رأس البطريرك المظلوم قائلاً لخصومه الهائجين هذا انه اسلم فكفّوا عنه . فارتعدت فرائص البطريرك البائس فرقاً ، واضطربت خصائله هلعاً لهول المصاب وأرتج عليه فلبث على هذا زماناً [2] . قيل وكان يصعد الى المأذنة ، ويرثي حاله بصوته الرخيم ، فيبكي سامعيه من المسيحيّين . ولمّا اشتدّ عليه وخز ضميره ، وهاله منظر الشعب واقلقه ، خاصة لانه لم يعد يجرأ على ان يظهر نفسه مسيحياً ، فوّض ادارة البطريركية الى ابن اخيه المفريان داود شاه الآنف الذكر ولاذ بالهرب سنة ١٥٧٨ الى قبرص ، وقيل الى رودس ، ومنها الى عاصمة الكثلكة . ولجأ الى البابا غريغوريوس الثالث عشر ، واعترف بخطيئته . فرحّب به نائب السيد المسيح وعزّاه وساعده على التوبة . فتاب حقيقةً ، واعتنق الايمان الكاثوليكي المقدّس . ولم ينفكّ عن البكاء امام صورة مريم العذراء حتى كلّسته ، على ما قيل ، فصنع صورة مثلها وارسلها الى ابن شقيقه في آمد مشفوعة بجزء من عود الصليب الكريم [3] .

---

١) تدعى ايضاً « قره آمد » اي آمد السوداء لسواد حجارتها .

٢) هذه الرواية عن رسالة منه نقلها النفس جبرائيل دولباني الماردينيالبغوبي في مجموعته الموجودة اليوم في خزانة كتب مدرستنا البطريركية في دير الشرفة .

٣) عن مجموعة النفس دولباني ايضاً .

وكان الحبر الاعظم يومئذٍ مُعنى باصلاح التقويم لحساب ايام السنة ، وقد جمع العلماء من كل صوب للقيام بهذه المهمة للكنيسة ، فاضاف اليهم البطريرك نعمة الله ايضاً ، فساعد البابا في ذلك لخبرته في الرياضيات والطبّ[1] .

وفي تلك الاثناء التحق بالبطريرك الى رومية موسى اسقف مذيات الذي كان قد رسمه البطريرك نفسه ، على ما مرَّ بك ، يصحبه شمّاسه عبد النور ابن اخت المفريان ايليا . فاقام الثلاثة في حاضرة الكثلكة ، واكبوا على درس اللغة الايطالية حتى احكموها . فتعين الشماس عبد النور معلماً في مدرسة الشرقيين . ثمّ عاد الى وطنه ، وارتسم كاهناً . واما الاسقف موسى فلانه كان ضليعاً باللغة السريانية انتدب الى تدريسها لتلامذة المدرسة المارونية التي انشأها لهم في رومية البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٤

واذ كان البطريرك نعمة الله ، منذ شخوصه الى رومية ، قد أعجب بمناظرها الجميلة وانتظام الكنيسة الرومانية ، وعاين توافر وسائل القداسة فيها وازدهارها بالعلوم ، بعث برسالة الى نائبه داود شاه ، ابن شقيقه ، وسواه ، واصفاً لهم ذلك ، ومبيناً انَّ الكنيسة الرومانية هي كنيسة المسيح الحقيقية ، ورغبهم في الاتحاد معها الذي يضمن النجاح للطائفة السريانية دينياً وادبياً . ثم عاد وكتب رسالة ضافية باللغة السريانية وهي التي نُعنى بنشرها اليوم . وقد أسهب فيها بوصف رومية والشعوب الغربية وملوكها كما يلوح للقارئ اللبيب من مطالعته اياها . فكان لكلامه الوقع الحسن في القلوب فانفذ داود شاه المفريان نائبه ، من ساعته ، دستور ايمانه الى البابا غريغوريوس الثالث عشر[2] بالاتفاق مع مينا الاصفر ، مطران السور التابعة لناحية طور عابدين ، والمطران توما النائب العام . وفي الوقت ذاته كتب المفريان الموما اليه الى عمه البطريرك نعمة الله يطلعه على ان الاساقفة معوّلون على نصبه بطريركاً خلفاً له . فسرّ البطريرك المغبوط بذلك ، وطفق يلتمس من الكرسي الرسولي مساعفته على

١) عن جريدة الكنيسة الكاثوليكية الجزء ١ سنة ٣ صحيفة ٢٧٢ ، عن المؤرخ « دراس » ج ٣ .

٢) محفوظ في المصحف الوانكاني ، عدد ١٦٦

تحقيق امانيه ، ويؤيد المنتخب الجديد بسلطانه الرسولي كي ينشط ويتشجع فيأتي بطائفته الى الاتحاد المنشود . وكان الحبر الاعظم قد ارسل كاهناً يسوعياً اسمه يوحنا المعمدان البانو (جان باتستا البانو) الى السريان الموارنة سنة ١٥٧٨ ، فاوعز اليه تلبيةً لرغبة البطريرك بأن يعنى بشؤون السريان اليعاقبة ايضاً ، ويواجه داود شاه فقفل . ولكن لم تفلح مساعيه لشدّة تمسكهم بمذهبهم . وكان هذا المرسل يشكّ في اخلاص نيّة البطريرك نعمة الله نفسه لانه كان يعذر اصحابه محتجاً بانه لو كان المرسل اليهم اسقفاً عرض الكاهن لقبلوه ، واذعنوا له ، وعملوا على الصلح[1] .

ولما رأى البطريرك نعمة الله ان الكرادلة ايضاً لم يثقوا بكلامه ولم يأبهوا لمواعيده ، اغتمّ غمّاً لا مزيد عليه فرفع الى البابا عريضة باللغة الايطالية سهلة العبارة لتح فيها الى اخباره والخطوب التي اضلعته . والعريضة تفصح عن طول باعه في الفقه ورسوخ قدمه في التاريخ . واليك نسخة تعريبها ملخّصة ، قال:

ايها الاب الاقدس

اني ، انا نعمة الله باسم بطريرك انطاكية ، ألتمس من قداستك متذللاً ان تصغي اليّ فيما ارفعه اليها باوجاز عمّا يعود الى مجده تعالى ونصر كنيسته وخلاص النفوس فاقول : لما كان تعلق قلبي قديماً بسدّتك الرسولية ، اعني منذ اثنتي عشرة سنة حتى الآن ، فقد حملني هذا التعلق على ان اقاسي اتعاباً وشدائد وغموماً لا توصف ، حتى اني خاطرت بحياتي من اجل اجتلاب شعبي الى الخضوع لمقامك الاسمى . وقبل شخوصي الى هنا ، كنت قد اقمت ابن اخي نائباً عني ليحقق رغبتي . والآن قد وافتني البشري بموافقته اياي اثناء تمويل الاساقفة على انتخابه خلفاً لي في البطريركية . بيد انه رغماً عن ذلك قد تجدّدت همومي لعدم مشاهدتي من يكترث لي ويثق بكلامي مع وجودي عندكم . فقداستك عالمة ان البطريركية الانطاكية تختصّ بطائفتنا السريانية دون غيرها ، وذلك حسب قوانين المجامع القديمة ، ولا حقّ فيها لليونان ، كما زعم بعضهم ، وقد اضافوا الى مدّعاهم هذا انّ لهم التقدّم على الكرسي الروماني بغير حقّ . وبلغ بهم الادعاء الى ان اقاموا من جنسهم ايضاً بطاركة لانطاكية والاسكندرية واورشليم[2] . وكل خبير في علم التاريخ يدري انه ليس لليونانيين غير كرسي

---

١) عن الآثار الخطية للمرحوم الاب انطون رباط اليسوعي.

٢) اشار بكلامه الى مجاملة للكردينال سوارين ، وكيل الشرقيين في رومية ، للطائفة الملكيّة ، وسماح الحبر الاعظم لهم ان يسموا بطريركهم بالانطاكي والاسكندري والاورشليمي كما في عهد الشقاق .

القسطنطينية . فلقداستك الحق ان تؤيد المنتخَب الجديد وتمنحه باسمه القديم اي بالانطاكي ، وذلك بدون اضافة اسم اليعقوبي اليه . فان هذه التسمية اضافها اليونان الينا عدواناً فضلاً عن انها كانت شاملة لغير السريان ايضاً كالاقباط والارمن والحبش ، وليس اسم طائفة او اقليم . وان لا يمنح باسم بطريرك الكلدان(١ بل مجرَّدًا بطريرك انطاكية الذي مقرّه دير الزعفران وهكذا تنفى كل شبهة . وجلّ التمني من قداستك هو ان تؤيد المنتخَب الجديد في البطريركية الانطاكية لئلا تذهب اتعابي عبثاً ، اذا ما انثنى شعبنا عن عزمه . لاني عالم بشديد تمسكه بالقوانين والرسوم القديمة . واقداستك مع ذلك ان تدبّر ما تراه اوفق — سُطِّرَ في رومية سنة ١٥٨١ » (٢

وفي تلك الغضون ، اذ لم يعد من امل في الشرق بعودة البطريرك نعمة الله اليه لانّ وجوده فيه غدا محالاً ، اجتمع الاساقفة سنة ١٨٩٤ يونانية (١٥٨٣م) واقاموا داود شاه بطريركاً(٣ ، وتعين شقيقه المطران توما نائباً ومعاوناً له .

اما البطريرك نعمة الله فلم يكن ليكفّ عن السعي لدى الكرسي الرسولي في ارسال قاصد الى طائفته حتى لباه الحبر الاعظم ، بل وعده ايضاً بفتح مدرسة في رومية لتثقيف شبان من طائفته يكونون جديرين بان يصيروا كهنة ، ووعده ايضاً بانشاء مطبعة لنشر الكتب السريانية . وانفذ قداسته رسالةً الى البطريرك الجديد ، ومثله صنع نائبه انطونيوس كرديناك سان سورين . ثم سيّر البابا بُعيد ذلك الى بلاد الشرق قاصداً رسولياً يحسن التكلم باللغة العربية اسمه لاوزد هنيبل وكان مطراناً لصور ، فسار يصحبه كاهنان يسوعيّان هما الاب ليوزد سنتانجلو بصفة مستشار ولاهوتي ، والاب اغناطيوس دي لاكازا ، وكان يلمّ باللغة العربية . وكان قد تسلّم هذا القاصد من الحبر الاعظم الباليوم ، اي الدرع البطريركي ، وبراءة التأييد لبطريركية داود شاه ، وعني باستحصال فرمان من السلطان مراد خان الثالث يُجيز له فيه التجوّل في تلك البلاد ، وتفقّد كنائس اورشليم وسائر بلاد المشرق . فالتجأ صدر البطريرك نعمة الله لذلك ، وانقشعت سحائب همومه . فكتب بهذا الصدد الى البطريرك الجديد وغيره ، ولاسيما الى وكيله في حلب

١) كان في ذاك العصر قد اطلق اسم الكلدان على السريان وهماً .

٢) وُجدت هذه العريضة بين السجلات السرية في الواتكان خزانة ٧ ، صندوقة ٣ ، عدد ٣٠

٣) عن لائحة البطاركة الموجودة في مكتبة دار المطرانية السريانية في حلب .

الخواجا سفر المكنى بـذي الجيبين ، وهو ابن المقدسي منصور قُرَيع الرهاوي تزيل حلب[1] ، يوصيهم ليغتنموا هذه الفرصة لانجاز ما يبتغيه.

وصل القاصد لاوزد هابيل الى حلب . فهرع الشعب بهمّة الخواجا سفر الى ملتقاه . ولما انتهى الى الرها ، اقبل وفد من قبل البطريرك دارد الى لقائه ، فاخذره الى دير مار ابجاي الذي على شاطئ الفرات بين الرها وآمد . وكان قد عُيّنَ للاجتماع فحضر اليه هناك المطران توما ، النائب اخو المطران الجديد ، وتفاوض معه مدة ثلاثة ايام ليلًا . وقال : لقد ذاع بين الشعب انك قدمت لكي تبدّل مذهبهم وتحرم قدّيسيهم ، واتصل نبأ قدومك بالحكّام . وهذا ما ثبّط البطريرك عن الحضور اليك خيفةً من ان يحدث شغب بمجيئه . وقد فوّض اليَّ تأييد الاتفاق باسمه ، فان تدبيره كلّه بيدي . واثبت وكالته بعرضه على القاصد الكتب التي ارسلها البابا والكردينال وختم البطريرك . فاجتهد القاصد ليقنعه بمواجهة البطريرك نفسه ، ولو بزي العلمانيين ، ليفاوضه مشافهة بما أُمر ، ويعرض عليه ارسال شبّان الى رومية يتلقّون العلوم في المدرسة المختصّة باسم السريان ، وان يبعث بكتب علمية لتطبع بالسريانية والعربية ، الى غير ذلك . فلم يجد من المطران الا محاولة وصدًّا عن مقابلة البطريرك . فاضطرّ الى مكاشفته بالامر ففاتحه بابرازه له صورة الايمان والخضوع للكرسي الرسولي ، واراه كتاب البطريرك نعمةالله المشروحة فيه هذه المسائل . فقبلها ، وسلّم بها ، موقعاً اياها . ولكنه لما وصل الى قبول المجمع الخلقيدوني ورفض ديوسقوروس ، توقّف متعجباً من قبول البطريرك نعمةالله ذلك وموافقته عليه ، فقال : هذا مستحيل . فلم يألُ القاصد جهدًا في اقناعه ، واقناع بقية

[1] قيل كان الخواجا سفر من اماثل الشهباء وعلية القوم ، ديّنًا وزوفًا بالفقراء ، نديّ الكفّ واسع العطاء حتى نُعت «بذي الجيبين» . ويُروى عنه انه كان قد ابتاع قمحًا في ايام الرخص وادّخره فباعه بقيمة بخسة ايام غلاء كبير حدث في حلب ، فأحبه الشعب على اختلاف نحله ، واجله الحكّام فعُهدت اليه نظارة الجمرك . ومما يدلّ على رفيع منزلته لدى اولي الامر ما سمح له به محمد باشا والي حلب مما لم يكن ليسمح به في زمانه للمسيحيين ، وهو ان يرمّ كنيسة السريان . وسُمح كذلك لابنه نوري چلبي ببناء قاعة الدار المقرانية الملاصقة للكنيسة المذكورة في ايام البطريرك يلاطس سنة ١٥٩٤ م .

الاساقفة ، واستنجازه اياهم وعودهم للبطريرك نعمة الله . فلم يُفلح سعياً ، ولم يتمكن ، مع كل ما ابداه من الحزم والعزم وما بذله من المشقات والنفقات ، من استمالة احد من السريان سوى الخواجا سفر السابق الذكر وولديه فتح الله ونوري واتباعه من الاقارب والاصحاب . فاعتنق هؤلاء الايمان الكاثوليكي المقدّس ، ووقّعوا دستور الايمان مؤكدين ، وفي مقدّمتهم الخواجا سفر ، انهم لم يحملهم على ذلك الا الهام الهي . وبعثوا بتقريرهم سنة ١٥٨٦ الى البابا والكردينال والبطريرك نعمة الله . وقد افاضوا في تقريرهم الى البابا بجزيل الشكر وجميل العرفان لخليفة حامة الرسل من جراء ما ابدى للبطريرك نعمة الله من امارات اللطف والعطف بحيث اشترى له داراً خصوصية . واتوا على ذكر ما تحمّله هذا البطريرك المظلوم من المحن والتجارب ، ووصفوا صبره واستسلامه للاله الواحد القهّار . وذكروا انّ الطائفة السريانية مقرّة ومعترفة منذ قديم الايام بالخضوع لسدّته الرسولية ، فمحبّتهم الصادقة ليست بجديدة بل هي من عهد آبائهم المرحومين الذين درجوا . وقد زادهم رغبة ورسوخاً ما يحظون به من الارشادات بهذا المعنى من البطريرك المذكور ونصائحه القيّمة لهم في جميع رسائله ، ولاسيما في الرسالة التي حملها منه اليهم السيد لاورند قاصد قداسته . واسهبوا في ذكر الموانع التي حالت دون اجتماع القاصد المشار اليه بالبطريرك داود شاه ، قالوا من جملتها :

« في هذه الفصول ذاعت الاخبار وتفشّت في جميع البلدان بخلاف الواقع ، وفطر الناس افواههم واخذوا يضربون في المدى اخماساً لاسداس . فمنهم من قال ان القاصد اتى ليحيل اهل هذه البلاد الى الفرنجة . ومنهم من تخرّص عليه انه جاء بالبطريرك نعمة الله ضمن صندوق . ومنهم من اتّهمه بكونه قدم ليعبّئ جيوشاً من النصارى . ومنهم من ادّعى انه اتى بمال جزيل ليشيد به الاماكن المقدسة في القدس الشريف — والحق يقال انهم لم يفوهوا بأكذوبة احسن من هذه — وهكذا علق كل رجلين او ثلاثة يتحدثون حديثاً ويستنبطون خبراً يعملون على اشاعته في عرض البلاد وطولها . وكما اعلمنا قداستكم انّ الزمان لنحسٌ ولذلك لم يتمكن قدس الاب المكرّم البطريرك داود شاه من الاجتماع بقاصدكم »

وختموا هذا التقرير بتقديم الطاعة الكرسي الرسولي والتماس بركته ورضاه ، وابتهلوا اليه ليسأل لهم من سيدنا يسوع المسيح غفران خطاياهم وراحة لنفوس

موتاهم[1]. فلما انتهت هذه الانباء الى مسمعي رأس الكنيسة المنظور احبّ جدًّا الخوابا سفر فستاه كونت القصر الباباوي وانعم عليه بوسام السلسلة الذهبية[2].

اما المطبعة والمدرسة اللتان اعدّهما البابا للسريان فاضحتا على ما يظهر نصيب السريان الموارنة وحدهم، فبرز من المدرسة العلماء الاعلام والافاضل.

اما البطريرك نعمة الله فصرف بقية ايامه في رومية حتى وافاه الاجل في حوالي سنة ١٥٩٠ وكان يردّد دون انقطاع العبارة التالية وهي: «ارحمني يا ربّ ارحمني». وكانت مدّة بطريركيته ٢١ سنة، أعني من سنة ١٥٥٧ الى ١٥٧٨. وخلفه ابن اخيه اغناطيوس الرابع، وهو داود شاه السابق الذكر، ويقال عنه انه ابتاع كنيسة الاقباط في اورشليم وابتنى بيعاً شتى وتبرّع بمساعدة دير والدة الاله للسريان في صعيد مصر. وتوفي سنة ١٥٩١ في قرية قطربل من ضواحي آمد، ودفن في كنيستها المنسوبة الى مار توما الرسول، بعد ان قضى في البطريركية ١٣ سنة، وتولى البطريركية بعده في حلب البطريرك بيلاطس ابن القس اسطفان من قرية المنصورية في جوار ماردين

وقد تولى السدة البطريركية الانطاكية من اسرة البطريرك نعمة الله ايضاً بطريرك ثالث هو يوحنا الثامن عشر (١٤٨٤–١٤٩٤). وممّن يمتّ اليه بالنسب البطريرك اغناطيوس بطرس الخامس (١٥٩٨–١٦٣٩) وبرز من هذه العترة ايضاً الاساقفة طيمتاوس توما النائب البطريركي العام، وايوانيس ميناس مطران السور ابنا قسطنطين شقيق البطريرك نعمة الله المار ذكرهما، والسيد ديونوسيوس ميخائيل هدايا مطران حلب († ١٨٢٧)

---

١) في خزانة السجلات الواتكانية، عدد ١٦٩، اربع اوراق فيها صورة ايمان سفر بن منصور، ورسالتان باسم السريان صوماً الواحدة الى البابا، والثانية الى الكردينال، ورسالة البطريرك داود الى القاصد لاونرد. (المكتبة الشرقية ٣: ١٨٦). وقد حظي حضرة المونسنيور اسحق ارملة السرياني الفاضل، ابان وجوده في رومية سنة ١٩٣٠، بتقرير سفر ورفاقه بالمثلة الدرية ونشره ملخصاً في كتابه «الرئاسة البابوية في الكنيسة السريانية»

٢) عن التقرير الذي رفعه لاونرد هايل، القاصد الرسولي، الى البابا كسطس الخامس، وهو محفوظ في سجلات الواتكان خزانة ٣، صندوقة ٧. وفي الشرق المسيحي للركيان جزء ١، عمود ٣٥ و ١٤٠٦ (له صلة)